أصول في التراث العلمي الإسلامي

عماد عبد الحميد أحمد حسين

شبكة الألوكة
www.alukah.net

أصول
في
التراث
العلمي الإسلامي

عماد بن عبد الحميد بن أحمد الحنبلي

المقدمة

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد:

فإن الشريعة الإسلامية الغراء أثمرت لنا حضارة زاهرة لم يعرف التاريخ البشري حضارة مثلها، ذلك بأن هذه الشريعة كانت تحمل بين طَيَّاتها سر التقدم والتفوق على سائر الحضارات؛ وهي أنها شريعة وسطية لا تفريط فيها ولا إفراط، قد أعطت العلم حقه اللائق به؛ ففتحت له دروب العمل في ظل الوحي الإلهي، فلا هي أخمدت دَور العلم كما فعلت أوروبا النصرانية التي حاربت العلم والعلماء، ولا هي قدست العلم فجعلته الحقيقة المطلقة، كما تفعل الآن حضارة الغرب الزائفة.

وإنما انطلقت هذه الحضارة تَغُزُّ السير إلى الصدارة بفعل القوة الكامنة في الوحي الشريف، حتى خضعت لها سائر الحضارات التي عاصرتها، وتخلت لها عن صدارة العالم ليتنسم العالم عبق الحرية المكلل بهدي الوحي المُنَزَّل.

ثم تُفاجِيء هذه الحضارةُ الوليدة العلماءَ قاطبة من غير أبناءها بأصول وقواعد جديدة للبحث العلمي لم يهتد إليها أحد من قبل؛ فقد علَّمتهم هذه الحضارة أن جميع هذه المسائل العلمية من الممكن أن تنتظم في إطار متناسق من القوانين والنواميس المترابطة، والتي من الممكن أن يُهتدى إلى بعضها بالقياس على بعض، وذلك لأن علماء هذه الحضارة قد أيقنوا أنه ما وضع هذه النواميس والقوانين إلا ربٌّ واحدٌ، وليس آلهةٌ متعددون متشاكسون، ثم ها هي هذه الحضارة تصبغ العلم بصِبغة أخلاقية؛ فتعرف للحضارات السابقة عليها فضلها مشكورًا غير منكور، فتسعى إلى تهذيب علوم السابقين، والبناء على ما صح عندهم من علوم، ثم تُعلِّم الدنيا برمتها الدقة والنظام والأمانة في نقل العلم، ثم إذا بها تستنبط منهجًا تجريبيًا لم تُسبق إليه بعد أن كان العلم لا يخلو من الخيالات والشطحات الفلسفية، إلى غير ذلك من الخصائص والأصول التي بُني عليها المنهج العلمي الثقافي الإسلامي.

وفي هذه البحث المختصر نحاول تسليط الضوء على بعض هذه الأصول والخصائص المُمَيِّزة للبناء المنهجي العلمي في التراث الثقافي الإسلامي سائلين الله عز وجل أن تعود الأمة إلى الريادة والصدارة، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

تمهيد

*** تعريفات لابد منها:**

١- **الأصول:** جمع أصل، وهو في اللغة أسفل الشيء، أو ما يُبنى عليه غيره، سواء كان الابتناء حسيًّا، كالأساس الذي يُشيد عليه البناء، فهو أصل له، أم كان الابتناء عقليًّا، كابتناء الأحكام الجزئية على القواعد الكلية[١].

وهو هنا في مقابل الفرع، وهو ابتناء عقلي، كما هو ظاهر.

٢- **الخصائص:** جمع خِصِّيصة، قال ابن منظور:" خصصه واختصه: أفرده به دون غيره"[٢].

فالخصائص هي مجموعة الصفات التي تميز الشيء، وينفرده بها عن غيره.

٣- **البحث العلمي:** وسيلة للدراسة يمكن بواسطتها الوصول إلى حل لمشكلة محددة، وذلك عن طريق التقصي الشامل والدقيق لجميع الشواهد والأدلة التي يمكن التحقق منها، والتي تتصل بهذه المشكلة المحددة[٣].

٤- **التراث:** يقول الأستاذ الدكتور السيد رزق الطويل: "يطلق التراث أو الميراث على كل ما يخلفه الإنسان من مال أو علم أو نحوهما، وفي الحديث: العلماء ورثة الأنبياء، لكنني ألمح في لفظ التراث إيحاء خاصا إلى ما خلَّفه الأدباء من علوم ومعارف ومصنفات، حتى صارت في تقديري عَلَمًا بالغلبة على النتاج الفكري لأسلافنا الذين سبقونا بالبحث والدرس، وارتياد دروب التصنيف"[٤].

وهذا الموروث الثقافي العلمي يشمل كل ما خلَّفه الأسلاف من آثار فكرية وتطبيقية ساهمت في ريادة الحضارة الإسلامية، والذي نستطيع أن نعود إلى موقع الريادة بواسطة الانطلاق من قواعد وأصول هذا التراث الثقافي العلمي الإسلامي.

---

(١): الوجيز في أصول الفقه الإسلامي، ص: ١٧.

(٢) لسان العرب: ٢٤/٧.

(٣): أصول البحث العلمي ومناهجه، ص: ٢١.

(٤): مقدمة في أصول البحث العلمي وتحقيق التراث، ص: ١٤١.

ومما سبق نستطيع القول بأن موضوعنا يدور حول الأصول والطرائق العلمية التي اتبعها الأسلاف للتعامل مع الظواهر والمشكلات الكونية التي كانوا بصددها استمدادًا من روح الإسلام وعقيدته ومنهجية القرآن الكريم والسُنَّة النبوية المطهرة.

وثمة مفهوم لابد من استصحاب معناه خلال هذا البحث، وهو **علم مناهج البحث (الميثودلوجيا):**

يُعَرِّف الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد باشا هذا النوع من العلوم بقوله: "العلم المَعني بطرائق ومناهج البحث في العلوم، للوصول إلى الحقيقة العلمية أو للبرهنة عليها"[١].

*** الإسلام وقضية العلم:**

مما ينبغي أن يُعلَم أن الدين الإسلامي والذي يمثل الدين الحق الذي تفرد إلى الآن بالاتصال الحق بالسماء، والذي لا يزال يحتفظ بأصوله نقية بعيدة عن التحريف والعبث؛ هذا الدين جعل قضية العلم من أكبر القضايا التي شغلت المسلمين عبر تاريخهم، ودفعتهم دفعًا إلى مركز الريادة والتقدم، وجعل من أهل العلم محور البعث الحضاري في التاريخ الإسلامي.

فقد جاء في القرآن الكريم الحث على العلم والتفكر والنظر:

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿**قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾[الزمر:٩].

وقال سبحانه:﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**﴾[فاطر:٣٥].

وقال جلَّ وعزَّ:﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[آل عمرا: ١٨]. في آيات كثيرة.

وقد جاء في سُنَّة النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث تَحُث على طلب العلم، يكفي منها هذا الحديث الدَّال على عظيم فضل العلماء:

وهو ما أخرجه الترمذي في السنن[٢] عن أبي الدرداء رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول:" **من سلك طريقا يبتغي فيه عِلما سلك الله به طريقا إلى الجنة، وإنَّ الملائكة لتضع أجنحتها رضاءً لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض حتى الحيتان في الماء، وفضل العالم على العابد، كفضل القمر على سائر الكواكب، إنَّ العلماء ورثة الأنبياء، إنَّ الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما إنما ورثوا العلم، فمن أخذ به أخذ بحظ وافر**".

---

(١) دراسات إسلامية في البحث العلمي، ص: ١٢٣.

(٢): سنن الترمذي: ح ٢٦٨٢.

وليس يقتصر معنى العلم في هذه النصوص المباركة على العلوم الشرعية، بل على كل علم فيه نفع للإنسان في دنياه وآخرته.

وهذا هو الأمر الذي نتج من وراءه الجم الغفير من العلماء الذين تخصصوا في شتى مناحي العلوم النظرية والتطبيقية، والذين قامت على أكتافهم حضارة الإسلام في أكثر بقاع المعمورة، والتي كانت أهم رافد من روافد الحضارة الغربية اليوم.

*** لماذا يجب أن يستمد العلم أخلاقياته وروحه من الإسلام؟**

نحن بين طائفتين غير إسلاميتين ممن وصفوا بكونهم علماء عبر التاريخ، طائفة أخذت تفسر الظواهر العلمية والكونية وفق خرافات وثنية أو تحريفات لاهوتية قضت على روح العلم وألصقته بالخرافة، وجعلت الدين سيفًا مسلطًا على العقل والفكر، وحاربت أشد المحاربة من يخرج عن هذه التفسيرات اللامنطقية واللاعقلية لظواهر الكون، وقد كانت هذه التفسيرات تنبع من روح الجاهلية الوثنية التي سيطرت على العالم لقرون طويلة، وطائفة أخرى كفرت بكل التفسيرات المتصلة بالدين وما وراء عالم العقل المحدود، وجعلت العقل والعلم شيئين مطلقين لا يجوز الخضوع إلا لهما، وكفرت بكل ما يقع خارج منطقة الحس من الغيبيات التي نصت عليها الأديان بعامة، ومن ثم انعدمت الأخلاق العلمية التي توجب الحفاظ على النوع البشري مخافة العذاب في الآخرة، وظهرت بسبب ذلك الحروب التي استخدمت آلات الحرب الفتاكة التي أنتجتها المعامل العلمية لتفتك وتبيد جماعات من البشر بلغت الملايين في الحربين العالميتين الآخيرتين، فهما طرفان مُتعاديان في قضية العلم، وكِلا طرفي قصد الأمور ذميم، ولا يستطيع الباحث أن يجد نموذجًا مثاليًا كنموذج الحضارة الإسلامية، والتي قبعت في الوسط بين الطرفين؛ فأعطت العقل حقه ودوره، وحررته من براثن الوثنية والتفسيرات اللامنطقية، وفي ذات الوقت كبحت جماحه المفرط وشهوته العارمة لصناعة كل شيء وإن كان فاتكًا مُميتًا، بل هذبته ليتحرر وفق قواعد الوحي السماوي، وتخضعه لصالح البشرية في دنياها وآخرتها.

يقول أستاذنا الدكتور أحمد فؤاد باشا:" من هنا كانت إسلامية المنهج العلمي، أو أسلمته، ضرورة حضارية مُلحة لضمان مواصلة التقدم العلمي والتقني مع الحفاظ على إنسانية الإنسان، ذلك لأن الإيمان الخالص والسمو الروحي يأتيان في مقدمة الخصائص التي يتميز بها المنهج العلمي الإسلامي"[١].

---

(١): دراسات إسلامية في الفكر العلمي، ص: ١٣١.

من أصول وخصائص منهج البحث العلمي في التراث الثقافي الإسلامي:

١- الاستمداد من عقيدة التوحيد:

من أهم أصول البحث العلمي في التراث الثقافي الإسلامي أنه **يُحرر الباحث من كل سطان إلا سلطان الله تعالى**، وبهذا تتحرر نفسه وترقى في سمو بديع، فليس هو ذلك الوثني الذي يتعنت في تفسير الظواهر حسب ما تمليه الأديان المحرفة على عقله من خرافات واعتقادات باطلة، حتى جنح بعضهم إلى وصف بعض المخترعات الحديثة بأنها من عمل الشيطان وآلهة الشر، وليس هو ذلك المادي اللمُنكِر للغيب.

يقول جورج سارتون: "ونسب رجال اللاهوت في العصور الوسطى الأمراض إلى عوامل خفية أظهرها حقد الشيطان وغضب الله، وتعرض الأطباء للاتهام بالإلحاد أو مزاولة السحر، وكان عقاب كليهما مريرًا، وكان علم الكيمياء فنًا شيطانيًا خبيثًا يتعرض المشتغلون به لأشد صنوف العذاب"(١).

ولا يزال أحد أهم أسباب نجاح الثورة الحضارية الأوربية أنه تم إقصاء القضايا العلمية بعيدًا عن سلطان الكنيسة ذات التعاليم السماوية المحرفة التي تدخل وضع البشر فيها ليفسد صحة نسبتها إلى الله تعالى؛ فدخلت عقولهم المتواضعة لتؤسس للجمود الفكري الذي أخر أوروبا كثيرًا عن دور الريادة العلمية، ثم ما أن تخلصت منها أوروبا حتى انطلقت لتُمسِك بأزمة العلم في العالم في الوقت الذي سيطر الجمود على المسلمين بسبب عدم استيعاب الطاقة الفكرية الهائلة في تعاليم الإسلام كما استوعبها الأولون فكانت أصل الريادة الحضارية عندهم، ولكن كما سبقت الإشارة إليه فإن أوروبا قلدت المسلمين في التحرر من الخرافات الوثنية، **لكن لم تصحب معها أخلاق الوحي السماوي** لتهذب الإنطلاقة الحضارية؛ فصارت أوروبا تستعبد الامم بسيف العلم، كما استعبدت الكنيسة شعوبها بسيف الكهنوت المحرف المنسوب زورًا إلى السماء!

ولعل أهم أسباب الريادة الإسلامية هو تحرير الإنسان من كل معبود سوى الله تعالى، وهو **التوحيد الذي فجر كوامن الطاقات البشرية** لتتناغم مع هذا الكون الذي يدين لله تعالى بالوحدانية، ولذلك سعى علماء المسلمين لوضع النظريات العلمية وفق شيء يؤمنون به غاية الإيمان، وهو أن كل أجزاء الكون تخضع لقوانين لم يضعها الشيطان، أو آلهة تتصارع فيما بينها، أو مسيح صُلِب، ثم دُفِن مُهانًا ذليلًا، ثم قام من قيامته! أو لإمبراطور يتحكم في الرقاب، بل يؤمن المسلمون أنه لا يتحكم في كل

---

(١): فضل علماء المسلمين على الحضارة الغربية، ص: ٢٩٩.

هذه الأجزاء إلا الله تعالى، ومن ثم تتشابه القوانين الحاكمة لهذه الأجزاء الكونية، وهي بذا يمكن أن تجري عليها قواعد وأصول علمية متقاربة، وهي ناموس الكون الذي خلقه رب السماوات والأرض سبحانه وتعالى.

يقول أستاذنا الدكتور أحمد فؤاد باشا: "والباحث المؤمن هو الذي يفهم شهادة التوحيد في إطاره الشامل الذي يجمع بين وحدة النظام في بناء الذرة وبناء المجموعة الشمسية، وبين وحدة الطاقة بردها إلى أصل واحد وإن تعددت صورها، وبين وحدة الحركة في طواف الإلكترونات حول النواة، وطواف الكواكب حول الشمس، وطواف المسلمين حول الكعبة المشرفة"(١).

فبهذه العقلية يمكن التوصل إلى حل كثير من معضلات العالم بواسطة إدراك التشابه بين القوانين المنظمة لسريان الجزئيات في هذا الكون الفسيح إذ أن الخالق والصانع هو الواحد الأحد الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

٢- النزاهة العلمية = الصِبغة الأخلاقية

حث الإسلام المؤمنين به على أن يتجردوا من الميول والأهواء المفسدة للأحكام والتصورات، فقد قال الله تعالى:﴿**وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ [سورة ص:٢٦]، ولذا ترى المسلمين قد استفادوا من تراث اليونان والإغريق والفرس والهنود، وشرحوا عليه الشروح، وتعقبوهم في كثير من آرائهم، دون إنكار لما وصلوا إليه من نتائج صحيحة، بل أثبتوها وزادوها ثبوتًا بالأدلة الجديدة التي وجدوها، وردوا ما فيها من أخطاء، بينما كان دأب كثير من علماء الحضارة الغربية النزعة الحاقدة على الإسلام وعلومه وإنكار فضائل علماءه.

يقول الأستاذ الدكتور علي بن عبد الله الدفاع: "اعترف علماء العرب والمسلمين بمكانة علماء اليونان وتميزهم في العلوم التي تعتمد على الفلسفة، كما ذكروا أنهم استفادوا من مؤلفات كل من ابولونيوس وارخميدس واقليدس وبطليموس وأرسطوطاليس وافلاطون وديموقريطس، وغيرهم فائدة عظيمة"(٢).

---

(١): دراسات إسلامية في الفكر العلمي، ص: ١٣٥.

(٢) فضل علماء المسلمين على الحضارة الغربية، ص: ٤٥.

٣- صرامة المنهج التجريبي عند المسلمين

أخضع المسلمون المفاهيم السائدة في الأوساط العلمية لبحث علمي صارم للتخلص من الفرضية العلمية التي لا دليل عليها، حيث يقوم هذا المنهج على الدليل، والمشاهدة، والتجربة، والقياس، والمقارنة بين النظائر، واستبعاد الوهميات والظنيات غير الراجحة، وبذا يتم التخلص من الموروث الخاطئ المتمثل في ترك سنن الآباء المخالفة للحق.

يرى الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد باشا أن الموضوعية الإسلامية تتمثل في قلب علماء المسلمين لكثير من المفاهيم العلمية التي كانت سائدة قبلهم بعد أن أخضوعها للتجربة، ووصفها وصفًا واقعيًا لا وصفًا فلسفيًا يقوم على الخيال[١].

ويتضح هذا الأمر من خلال معرفة **مناهج البحث الرئيسية**، وهي:

أ- المنهج الاستدلالي

ب- المنهج التجريبي

ج- المنهج الاسترادي

يقول الأستاذ الدكتور يوسف أبو العدوس: "وقد طبق العلماء العرب هذه المناهج في بحوثهم ودراساتهم ومؤلفاتهم بشكل كبير، وبخاصة المنهجين الأول والثاني...لقد نبغ علماء العرب في البحث العلمي في شتى فنون العلوم والفنون، ولا زالت مؤلفاتهم وأبحاثهم وآثارهم حتى الآن ماثلة أمام العِيان، وكان لهم دور منهجي أفاد البحث العلمي...وقد وضع هؤلاء العلماء لبنة البحث العلمي الأول، وشاركوا في تصميم أسسه، كما أفاضوا في الكتابة والتأليف، وابتدعوا أدوات البحث والقياس والتجريب، واخترعوا الأجهزة والأدوات العلمية، واتبعوا الملاحظة والتدقيق والتمحيص، وتميزوا بالدقة والموضوعية والقياس... "[٢].

ويضيف الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد باشا: "كما أن قراءة التراث الإسلامي تدلنا على أن المسلك الذي اتبعه علماء الأصول وعلماء الحديث في الوصول إلى الصحيح من الوقائع والأخبار والأقوال قد انسحب على أسلوب التفكير والتجريب في البحث العلمي..."[٣].

---

(١): يراجع كتاب: دراسات إسلامية في الفكر العلمي، ص: ١٥٤-١٦٢.

(٢): منهج البحث العلمي وتطبيقاته عند العلماء العرب القدامى، ص: ٤.

(٣): دراسات إسلامية في الفكر العلمي، ص: ١٢٨.

وهذا العلم الذي ذكره الأستاذ الدكتور أحمد فؤاد باشا، وهو **علم الحديث**، قد بهر كثيرًا من المستشرقين بقواعده الصارمة التي وضعها علماؤه للتثبت من صحة الأخبار والنقول، ولنأخذ على ذلك مثالًا:

يقوم علماء الحديث بدراسة الإسناد الذي هو الطريق إلى الرواية بواسطة قواعد تدل على منهج علمي صارم لم يُسبق إليه، ومن أبرز ما تتم دراسته: **سماع الراوي من شيخه:**

فهم لا يُسَلِّمون لقول إمام مطلع أن فلانًا سمع من شيخه، بل يعتبرون ذلك مجرد قرينة، ويبدأون في التفتيش عن السماع؛ لأن هذا الإمام لعله أثبت السماع بمجرد رواية الراوي عن الشيخ، وهي لا تفيد السماع على التحقيق، بل لابد من ثبوت السماع في الجملة، ولذلك يعتمدون على القرائن القوية.

وحتى يتضح الأمر؛ فتأمل صنيع الإمام البخاري رحمه الله في كتابه (الجامع الصحيح) فقد روى عن أبي عبد الرحمن السلمي، عن عثمان رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "خيركم من تعلم القرآن وعلمه"، قال البخاري : "وأقرأ أبو عبد الرحمن في إمرة عثمان حتى كان الحجَّاج قال: وذاك الذي أقعدني مقعدي هذا "١.

فالبخاري هنا يريد أن يثبت سماع أبي عبد الرحمن السُلَمي من أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه؛ فعمد إلى قرينة هامة، وهي أن أبا عبد الرحمن كان يُعلِّم الناس القرآن في المدينة النبوية على ساكنها أفضل الصلاة والسلام، في وقت إمارة عثمان، ومن خصائص الأمير أنه كان يصلي بالناس ويخطب فيهم في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ فلابد إذن أن يكون أبو عبد الرحمن سمعه من عثمان رضي الله عنه، وهما يجتمعان في المسجد مدة طويلة من الزمان، ثم كان هذا الحديث هو الحامل لأبي عبد الرحمن على الإقراء طوال حياته، فهو من أحفظ الناس لهذا الحديث.

فيتبين هنا جزء من طريقتهم في إثبات قضية علمية بمنهج القرائن والشواهد.

وقد استصحب علماء الطبيعيات المسلمون هذه المناهج القائمة على الشواهد والقرائن والتجربة والمقارنة والقياس التي وضعت أصولها في القرآن والسنة المطهرة، ويكفي من ذلك قول الله تعالى: ﴿**قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ**﴾[الأنعام:١٤٨].

وقوله تعالى:﴿**وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَى كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ**﴾[البقرة:٢٦٠]، حيث أزداد إيمان إبراهيم عليه السلام بالمعاينة لشيء من عظيم قدرة الله تعالى، وقد طلب زيادة الإيمان واطمئنان القلب.

---

(١): صحيح البخاري: ح ٥٠٢٧.

وقول النبي صلى الله عليه وسلم:"**ليس الخبر كالمعاينة**"(١).

وعن ابن عباس، قال: سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الشهادة، قال: " **هل ترى الشمس؟** " قال: نعم. قال: " **على مثلها فاشهد أو دع**"(٢).

ومن أفضل من استعمل هذا المنهج ابن الهيثم في كتابه (الشكوك على بطليموس)، وفي كتابه (المناظر) حيث أبان عن منهجه في إبراز الخلاف بين المذاهب في المسألة الواحدة، قائلًا: "وكل مذهبين مختلفين إما أن يكون أحدهما صادقًا والآخر كاذبًا، وإما أن يكونا جميعًا كاذبين، والحق غيرهما جميعًا، وإما أن يكونا جميعًا يؤديان إلى معنى واحد هو الحقيقة، ويكون كل واحد من الفريقين القائلين بذينك المذهبين قد قَصَّر في البحث، فلم يقدر على الوصول إلى الغاية، فوقف دون الغاية، ووصل أحدهما إلى الغاية، وقَصُر الآخر عنها".

ثم يذكر كيفية معالجته لهذا الخلاف، قائلًا: "ولما كان ذلك كذلك، وكانت حقيقة هذا المعنى مع اطراد الخلاف بين أهل النظر المتحققين بالبحث عنه، على طول الدهر ملتبسة، وكيفية الإبصار غير متيقنة، رأينا أن نصرف الاهتمام إلى هذا المعنى بغاية الإمكان، ونخلص العناية به، ونتأمله، **ونوقع الحد في البحث عن حقيقته، ونستأنف النظر في مبادئه ومقدماته، ونبتدئ في البحث باستقراء الموجودات، وتصفح أحوال المبصرات...ثم نرقى في البحث والمقاييس على التدريج والترتيب، مع انتقاد المقدمات والتحفظ في النتائج، ونجعل غرضنا...استعمال العدل لا اتباع الهوى، ونتحرى في سائر ما نميزه وننقده طلب الحق لا الميل مع الآراء**"(٣).

ويقول ابن الهيثم عن طالب الحق بأنه: "المتبع للحق والبرهان، لا قول القائل الذي هو إنسان، المخصوص في جبلته بضروب الخلل والنقصان"(٤).

فهذه هي الأصول التي شكلت عقلية ومنهجية البحث عند علماء المسلمين في مجالات العلوم التطبيقية، ومما أؤكد عليه؛ أن هذه العقلية والمنهجية إنما نشأت بفعل المُكوِّن الإسلامي الذي تم تنشئة الأجيال عليه، بدايةً من حفظ القرآن الكريم، وتلقي السُنن، وتعلم العلوم الشرعية والآداب الإسلامية، كل هذا عَمِل على تشكيل عقلية علماء الحضارة الإسلامية، وتأسيس هذه المنهجية الفريدة.

---

(١): مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني: ح ١٨٤٢.

(٢): شعب الإيمان للبيهقي: ح ١٠٩٧٤.

(٣): تاريخ العلوم عند العرب، ص: ٣٧١.

(٤): الشكوك على بطليموس، ص: ٣-٤.

٤- الدقة في إصدار الأحكام والنتائج

من يطالع كتب العلوم الإسلامية؛ فإنه يتبين له بجِلاء مدى الدقة التي يتكلم بها المسلمون عند إصدار حكم على قضية معينة، والعمل على وصفها وصفًا دقيقًا نابعًا من دقة المنهجية المتبعة، وإنما استصحب علماء الطبيعيات المسلمون هذا من طريقة الكتاب والسنة في إصدار الأحكام بميزان لا يخرم مثقال ذرة؛ فتجد علماء المسلمين يغرقون في الوصف المادي للظاهرة، ويصدورن الأحكام الكلية والجزئية مع ذكر الاستثناءات التي تخالف طبيعة القانون الحاكم لهذه الظاهرة.

يقول ابن ملكا البغدادي في كتاب المعتبر في الحكمة معَبِّرًا عن تناسب القوة مع تسارع الحركة: ".. القوة الأشد تحرك أسرع وفي زمن أقصر"، ويقول معَبِّرًا عن قانون الفعل ورد الفعل: "إن الحركة المتجاذبة بين المصارعين لكل واحد من المتجاذبين في جذبهما قوة مقاومة لقوة الآخر، بل تلك القوة موجودة مقهورة، ولولاها لما احتاج الآخر إلى كل جانب"[١].

٥- الاهتمام بشروح كتب السابقين من المسلمين وغيرهم، مع الجمع لأقوالهم، والاستدراك والتعقب، والانتقاد

وهذه صفة راسخة من صفات التصنيف الإسلامي، فقلَّ كتابٌ سَلِم من التعقب والاستدراك والتذييل عليه، ولذلك تجد أن علماء الطبيعيات أخذوا يتعقبون من سبقهم، كما فعل ابن الهيثم في (الشكوك على بطليموس) وكما فعل المسعودي في (مروج الذهب) في مواضع منه، حيث يقول:" وأما ما تنازع فيه المتقدمون من أوائل اليونانيين والحكماء المتقدمين في مبادىء كون البحار وعللها فقد أتينا على مبسوطه في كتابنا أخبار الزمان في الفن الثاني من جملة الثلاثين فنا، وقد ذكرنا قول كل فريق منهم وعزونا كل قول من ذلك إلى قائله، ولم نخل هذا الكتاب من إيراد لمع من قولهم"[٢].

ويقول منتقدًا بشدة الجاحظ:" وقد زعم عمرو بن بحر الجاحظ أن نهر مهران الذي هو نهر السند من نيل مصر، ويستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه، فلست أدري كيف وقع له هذا الدليل، وذكر ذلك في كتابه المترجم بكتاب الأمصار وعجائب البلدان، **وهو كتاب في نهاية الغثاثة** لأن الرجل لم يسلك البحار، ولا كثر الأسفار، ولا تقرى المسالك والأمصار وإنما كان حاطب ليل، ينقل

---

(١): التراث العلمي الإسلامي شيء من الماضي أم زاد للآتي؟، ص:٢٠.

(٢): مروج الذهب ومعادن الجوهر: ١/١٤٣-١٤٤.

من كتب الوراقين أولم يعلم أن نهر مهران السند يخرج من أعين مشهورة من أعالي بلاد السند من أرض القنوج..."[١].

(١): مروج الذهب ومعادن الجوهر: ١/١١٤.

الخاتمة

من خلال هذا العرض الوجيز يتبين لنا أن الحضارة العربية الإسلامية قد تميزت بخصائص وأصول لم توجد في الحضارات الأخرى، تلكم الأصول التي أصطبغت بها منهجية البحث العلمي عند المسلمين، إذ كان مبناها على القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، حيث كان علماء الطبيعيات يدرسون القرآن والسنة والفقه؛ فصارت طرائق استنباط الأحكام صفات راسخة في نفوسهم؛ فاتخذوها نِبراسًا للعمل في العلوم الطبيعية فأثمرت هذا النبوغ الحضاري غير المسبوق.

ولأنه من لا يشكر الناس لا يشكر الله تعالى؛ فينبغي شكر أستاذنا الدكتور العلامة أحمد فؤاد باشا حفظه الله الذي أرشدنا إلى الكتابة في هذا البحث في اختبارات دبلومة التراث بمعهد البحوث والدراسات العربية بالقاهر؛ فجزاه الله عنا وعن الإسلام خيرًا.

وفي الختام أسأل الله تعالى أن يمنَّ علينا باستعادة الدور الريادي لهذه الحضارة إنه ولي ذلك والقادر عليه، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

وكتب

عماد بن عبد الحميد بن أحمد الحنبلي

دبلومة التراث والمخطوطات ٢٠٢١

القاهرة.

المراجع

القرآن الكريم

ابن حنبل: أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد، أبو عبد الله الشيباني (ت٢٤١هـ).
المسند، ت.شعيب الأرنؤوط – عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، نشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ – ٢٠٠١ م.
ابن الهيثم: الحسن بن الحسن أبو علي (ت ٤٣٠هـ-١٠٤٠م).

الشكوك على بطليموس، دار الكتب والوثائق القومية، مركز تحقيق التراث، مصر، مطبعة دار الكتب، ١٩٧١م.

د.أحمد بدر

أصول البحث العلمي ومناهجه، المكتبة الأكاديمية.

أ. د أحمد فؤاد باشا:

دراسات إسلامية في الفكر العلمي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٩م.
التراث العلمي الإسلامي شيء من الماضي أم زاد للآتي؟، دار الفكر العربي، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.

البخاري: محمد بن إسماعيل أبو عبدالله الجعفي (ت ٢٥٦هـ).

الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، ت. محمد زهير بن ناصر الناصر، الناشر: دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، الطبعة الأولى، ١٤٢٢هـ.

البيهقي: أحمد بن الحسين بن علي بن موسى، أبو بكر (ت ٤٥٨هـ).
شعب الإيمان، ت. محمد السعيد زغلول، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠.
الترمذي: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، أبو عيسى (ت ٢٧٩هـ).

السنن = الجامع، تحقيق وتعليق:أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ ٤، ٥)، نشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي – مصر، الطبعة: الثانية، ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.

أ.د السيد رزق الطويل:

مقدمة في أصول البحث العلمي وتحقيق التراث، المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة الثانية.

د.عز الدين فراج:

فضل علماء المسلمين على الحضارة الغربية، دار الفكر العربي، ٢٠٠٢م.

على بن الحسين بن على المسعودي، أبو الحسين (ت ٣٤٦هـ).

مروج الذهب ومعادن الجوهر، ت.أسعد داغر، دار الهجرة- قم - ١٤٠٩هـ.

د.عمر فروخ

تاريخ العلوم عند العرب، دار العلم للملايين، بيروت، ١٣٩٠هـ-١٩٧٠م

أ.د محمد مصطفى الزُحيلي:

الوجيز في أصول الفقه الإسلامي، دار الخير للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق – سوريا الطبعة: الثانية، ١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م

أ.د يوسف أبو العدوس

منهج البحث العلمي وتطبيقاته عند العلماء العرب القدامى، المجلة الدولية للبحوث الإسلامية والإنسانية المتقدمة، المجلد ٥، العدد ٨، أغسطس ٢٠١٥م.